حبيس فرنسوي في لبنان

المسيو فرنسوا دي شَسْطويل (١٦٣٣—١٦٣٤)

لحضرة القس بطرس ساره الراهب اللبناني

انَّ الترجمة اللطيفة التي نشرها في العام الماضي ذاك الكاتب البارع رينه بازين (R. Bazin) لتعريف حبيس فرنسويّ تنسّك في الصحراء وهو الضابط ثمَّ الكاهن شرل فوكو (راجع العدد الاوّل من هذه سنة المشرق ص ٧٣) ذكّرتنا بحبيس آخر فرنسويّ الاصل شرّف جبلنا لبنان في القرن السابع عشر وعطّر اهلهُ بفضائلهِ فلم يزالوا حتى اليوم يذكرونهُ بالخير. نريد به رجل الله المسيو فرنسوا دي شَسْطويل (Fr. de Chasteuil). على انَّ تفاصيل اخبارهِ العجيبة كادت تطمس من اذهان اهل الوطن فاجبنا ان نُحييها بهذه الخلاصة التي اقتطفناها من كتاب عزيز الوجود منهُ نسخة في المكتبة الشرقيّة للآباء اليسوعيين تحتوي ترجمة الحبيس المذكور (La vie de Monsieur de Chasteuil solitaire du Mont-Liban) وضعها كاتب من معاصريهِ المسيو مركيتي (Mr Marchety) احد كهنة مرسيلية بعد وفاتهِ بزمن قليل وطبعها في باريس سنة ١٦٦٦ وقد حرَّرها كذلك بعدهُ المدعو غسپار اوجيري تحت عنوان الحبيس البروفنسالي في جبل لبنان (Gaspard Augéri : *Le Solitaire provençal du Mont-Liban*, Aix, 1671). وقد اطّلعنا ايضاً على معلومات متفرّقة عنهُ في سياحة المسيو دي لاروك وفي المعاجم الفرنسويّة المطوّلة. امّا الكتبة الوطنيّون فلم نجد بينهم احداً ذكرهُ الّا العلّامة البطريرك الدويهيّ في تاريخهِ قال ما حرفهُ الواحد في تاريخ سنة ١٦٩٤:

في هذه السنة في الخامس عشر من أيار ليلة العنصرة كانت وفاة الحبيس فرنسيس الفرنساوي الاصل من بيت جلياق من مدينة اكوينة (كذا). فهذا حبّاً لخلاص نفسهِ زهد في الدنيا وترك اسقفيّة قسطول. وفي سنة ١٦٣٣ قدم الى جبل لبنان فحبس نفسهُ اوّلاً في سيّدة حوقا ثمَّ انتقل الى اهدن الى ديْر مار يعقوب الاحباش ثمَّ سار الى دير مار سركيس في راس النهر. وكان ذلك في رئاسة ابن حُمَيرة والاسقف الياس. ولمّا خرج هذا من الدير وسكن في اهدن

انتقل الحبس الى دير مار اليشاع بشرّاي. وكان قبل ذلك قد انتقل اليه الاب شيلستين الكرملي فلبث عنده مدّةً يسيرة من الزمان ومضى الى الراحة التي لا زوال لها بعد ان صار قدوة صالحة لاهل البلاد وبلغ اجلّ المراتب في الورع والصوم والسهر وتلاوة الكتب وقهر الجسد والتفكّر في الالهيّات »

اصل فرنسوا دي شطوبل وتاريخ حداثته

اصل فرنسوا دي شطوبل من اسرة شريفة من اقليم بروفنسة جنوبيّ فرنسة اشتهرت باسم غالوب (Galaup) ثم اقطعهم الملك هنريكس الرابع سنة ١٥٧٤ ارض شطوبل (Chasteuil) فعُرفوا باسم غالوب دي شطوبل فمنهم من امتاز بالآداب والتاريخ ونظم الشعر ومنهم من خدم وطنهُ في ساحات الحرب وتعاطى بعضهم الفنون الجميلة

وكان ابو فرنسوا يُدعى لويس غالوب دي شطوبل وامُّهُ فرنسواز كادنه (Fr. Cadenet) وكلاهما شهير بفضله وفضيلته خلّفا ثمانية اولاد حصل كلّ منهم على حسن السمعة وامتاز باعماله. لكنّ فرنسوا صاحب الترجمة فاق على الجميع بسعة مداركهِ وقداسة حياتهِ

وُلد المذكور في مدينة إكس من اعمال بروفنسة في ١٩ آب سنة ١٥٨٨ واصطبغ بعد ايّام بمياه الصودّيّة في الكنيسة الكاتدرائيّة فدعي فرنسيس. واذ كان الله يعدّهُ لمستقبل مجيد انشأ في قلبهِ منذ نعومة اظفاره محبّة عظيمة لذوي البأساء وعطفاً غريباً عليهم فما كان ليرضى ان يردّ عنهم واليد فارغة وربّما صرخ مُعوّلاً باكياً الى ان يرى اهلهُ يتصدّقون عليهم. وثبت على محبّتهِ للبائسين سائر حياتهِ يرى في شخصهم السيّد المسيح عينهُ

ولمّا ترمرع جذبهُ الله الى محبّتهِ فبغّض اليهِ اللعب واللهو مع اترابهِ فكان يعتزل عنهم لينقطع للصلاة. وكان قبل ان يبلغ العاشرة من عمرهِ يمارس اعمال التقشّفات والاماتة كالصوم ولبس المسوح والنوم على الحضيض وربط اعضائه بالاسراس الرفيعة حتى غاصت في لحمهِ. لكنّ مرشدهُ امرهُ بتخفيف تلك الاماتات فانقاد الى امرهِ. وكان متعبّدًا للبتول يصوم لاكرامها كلّ سبت وفي بيرمون اعيادها. ومجمل القول انّهُ كان بالملاك اشبه منهُ بالبشر يجذب الى الفضيلة كلّ من يعاشرهُ

وكان فرنسيس ذكيًّا متوقد الذهن فلمَّا ترعرع اخذ ينصبّ على الدرس بكلّ نشاط ورغبة . فما عتَّم ان فاق اقرانهُ بإحرازهِ اسرار اللغتين اللاتينيَّة واليونانيَّة . ثمَّ انقطع الى درس الفلسفة واذ رغب اليهِ ابوهُ ان يصرف نظرهُ الى التعاليم الفقهيَّة اجاب الى طلبتهِ فأتقن درسها ونال شهادة الملفنة

وانَّما كان ميل فرنسيس يدفعهُ الى درس الرياضيّات والعلوم الفلكيَّة فبرزَ فيها كما برزَ في الادب والشرع . على انَّهُ خُدِع مدَّة بزاعم المنجّمين فتعاطى التنجيم لكنَّهُ ارعوى عنهُ بمشورة احد الآباء الكبوشيين الذي بيَّن لهُ بطلانهُ فنبذهُ نبذ النواة

ثمَّ أنِس بمطالعة الاسفار المقدَّسة فاراد ان يتمتَّن بدرسها في اصلها العبرانيّ فاجتمع باحد الرهبان الفرنسيسين المدعو جبرائيل دي ڤلّا (Gab. de Villa) من مشاهير عصرهِ ولم يزل يتردَّد عليهِ حتى برع في معرفة تلك اللغة فزاد هيامهُ بقراءة التوراة فكان لا ينقطع عن مطالعتها حتى كاد يستظهرها . واضاف اليها درس اللغة السامريَّة فانتقد على نسخة منها اتوا بها الى فرنسة وادَّعى اصحابها وبعض العلماء انها سبقت النصّ العبرانيّ فبيَّن بادلَّة قاطعة ضلال الذاهبين الى هذا الزعم الباطل وكتب عدَّة ملحوظات لغويَّة على كليهما فقدَّمهُ لجبرئيل الصهيوني الماروني الذي كان يشتغل اذ ذاك في باريس بطبع التوراة المتعدّدة اللغات (Biblia Polyglotta) فأعجب بها وشاع بذلك اسم كاتبها حتى عُدَّ في جملة كبار المستشرقين . امَّا هو فلم يطلب من هذه الدروس سوى خير التريب وإغذاء نفسهِ بكلام الله ليزداد تُقًى وبرارة وطهارة قلب . ومِمَّا استفاد منها انها ادَّت بهِ الى السأم من روح العالم والى الزهد والانقطاع الى الله ففكَّر مذ ذاك في هجران وطنهِ ليعيش سالمًا في النسك والخلوة

سياحة فرنسيس دي شطوبل الى الشرق

وفي تلك الاثناء قدم الى مرسيلية الكونت دي مرشڤيل (de Marcheville) كان الملك لويس الثالث عشر اختارهُ كسفيرهِ لدى سلطان الاتراك في الاستانة . فرأى المسيو دي شطوبل فرصةً سانحة للسفر بصحبتهِ الى الشرق ليجتمع بعلماء الرَّبانيين هناك فيستفيد من انوارهم في حلّ بعض المشاكل اللغويَّة التي عرضت لهُ في

درس التوراة العبرانية . فالكونت الذي كان بلغهُ فضل المسيو دي شطوبريل رضي بان يرافقهُ وعدَّ صحبتهُ نعمةً من الله

فتأهب فرنسيس لهذا السفر البعيد وانتدب راهباً فرنسيسياً اسمهُ الاب تاوفيل مينوتي كان رحل سابقاً الى الشرق ليكون لهُ كدليل في سياحته . ثمَّ أعدَّ مأدبة فاخرة دعا اليها السفير وجماعةً من العلماء فتفاوضوا في مطاريها عن الفوائد التي يمكن اجتناؤها من معرفة بلاد الشرق ثمَّ قرأ عليهم الوداع

ابحر السفير الى الاستانة في ٣٠ تموز ١٦٣١ وكان سفرهم ميموناً على طريق ارخبيل اليونان مارين باريغو ثمَّ بيسارنوس وزاروا آثار ديلوس الشهيرة ثمَّ وصلوا الى شيو المعروفة بصاقس حيث كان الاسطول التركي رابطاً فتبادلوا مع اميره المتولي قيادتهُ عبارات الولاء والوداد . وكان دخولهم في عاصمة بني عثمان في ٢٧ ايلول

لم يشأ المسيو دي شطوبريل ان يتلهى بما تحتويه الاستانة من الغرائب والآثار لاسيما في عين الاوربيين الذين لم يعتادوا اخلاق الشرقيين واحوالهم المختلفة والى ان يقيم ضيفاً في دار السفير وانما استأجرت لهُ بيتاً في بعض احياء المدينة القليلة الفضاء ليتفرغ فيه لدروسه المحبوبة . فكان هناك يعيش مع الاب تاوفيل عيشة الرهبان يقضي زمانهُ بين الصلاة والدرس دون ان يكفَّ عن اصوامه وتقشفاته

على انَّ السفير الفرنسوي وجماعتهُ نشروا في الاستانة اخبار حياته العجيبة وسمو فضله وعلومه الكتابية فخفَّ الناس لزيارته وكان في جملتهم كثيرٌ من علماء اليهود الذين يلمهم ولوعهُ بلغتهم العبرانية فدارت بينهم المحاضرات فوجدوهُ متضلعاً من معارفهم بل حاول مراراً ان يقنعهم بآيات التوراة عن مجيء السيد المسيح فكان ينجمهم . واسعده الحظ بأن يردَّ واحداً من ربانيهم الى النصرانية فارسلهُ الى فرنسة واوصى بهِ اخاهُ لكي يُعنى بأمر ارشاده حتَّى اذا اتقن معرفة الحقائق الدينية يُعمَّد فيكون هو واختها شاهدَي عماده

وكان لاديبك المسلمين والاتراك يحبُّون ايضاً مواجهتهُ لما رأوا من لطفه وانعكافه على الآداب الشرقية ونالوا لهُ رخصةً لم يسمحوا بها لغيره الا نادراً بان يدخل مكتبة سراية السلطان المعدودة في ذلك الوقت من اغنى المكاتب بكنوزها الثمينة

اما علماء النصارى واكليرسهم كالروم والارمن والعرب فكانوا احرص من سواهم على زيارته ولم يكلّ لسانهم عن مديحه واطراء فضيلته

سفر المبو دي شطوبل الى لبنان واستعداده للعيشة النكبة

على انّ هذه الاشغال لم تكن لتصرف فكره عن رغبته في العزلة والاختلاء فاستحرّ بالصلاة ليوحي الله اليه بمشيئته ليتمها فشعر بانّهُ تعالى يدعوهُ الى التنسك في جبل لبنان ليعتزل معاشرة الناس ويتفرّغ لعبادة خالقه. فكاشف الاب تاوفيل بما في نفسه فتحقّق انّ دعوتهُ من الله. ثمّ اوقف الكونت دي مرشفيل على نيّته وبعد نيله رضاهُ ودّع كلّ معارفه واخصّهم الآباء اليسوعيين المرسلين في الاستانة الذين أبدوا لهُ كلّ لطف وولاء. مدّة اقامته في تلك الحاضرة فترك لهم كذكر وداد وعرفان الجميل ثوبين من اثمن ما كان لديه من الثياب الواحد من الديباج والآخر من المخمل قدّمهما زينةً لكنيستهم

وفي ٢٦ تموز سنة ١٦٣٢ ركب السفينة مع الاب تاوفيل قاصدَين سواحل سوريّة. وفي ٣ آب بلغا رودس واقاما فيها ٢٣ يوماً من دون ان يسمح لهما حاكمها بان يتجوّلا في أحيائها

ثم استأنفا سيرهما الى صيداء وبلغاها في السادس من ايلول واقاما فيها مدة اربعة ايام كانا فيها موضوع احتفاء واكرام. تركيت (Tarquet) قنصل الدولة الافرنسية والتجار الافرنسيين المقيمين هناك الذين اكرموا ضيافته وقدّموا لهُ كل معدّات السفر الى جبل لبنان

فسافر من صيداء في ١١ ايلول بعد ان لبس زي الموارنة ووصل بيروت في اليوم نفسه. وفي مساء الغد واصل المسير حتى نهر الكلب حيث بات ليلة في مغارة هناك. وفي ١٥ من الشهر بعد سفر اربعة ايام وصل حصرون فألفى اهلها يتكلمون السريانية لكنه لم يلبث فيها طويلاً رغم رغبته في درس السريانية على خوري القرية الذي كان ماهراً بهذه اللغة وكان يلحّ على الضيف بالبقاء عندهم فآثر هو الذهاب في الغد الى اهدن ليسترشد باسقفها المطران جرجس عميرة الذي كان اعلم اهل زمانه ويقرأ عليه اصول اللغة العربية فاحتفى به الاسقف ايّما احتفاء وقبله على الرحب والسعة فاقام عنده اربعين

يوماً اغترف فيها من مناهل معارفه كل ما كان يحتاج اليه ويرغب فيه وكان الاسقف معجباً به واراد ان يمسكه عنده لولا انه نذر ان يعيش في العزلة . وكان يصحبهُ في هذه الزيارة الاب تاوفيل الذي اكرمه الحبر الماروني وباركهُ وهنّأهُ بكونه دليلاً ومرشداً لذلك البار رجل الله

وكان هذا الاب يودُّ البقاء قرب صديقه الحبيب وان يكون لهُ كاتباً لكلّ ما يصنفهُ من التآليف الكتابية لو لم يكن فرنسيس خصص حياته للصمت والخلوة وعزم ان لا ينشر كتاباته خشية من المجد الباطل . وعندئذٍ اعرض عن الدنيا وعاش نسياً منسياً . فلما رأى الاب تاوفيل ان لاشغل له عند صديقه . تركه في وحدته ورحل راجعاً الى بلاده بعد ان زار القدس مرة ثانية وعثر في طريقه على كتب عبرانية ثمينة ارسلها الى دي شطويل فقبلها كاثمن الهدايا

ومنا فارقه رفيق سفره حتى طابت له الوحدة في بلاد طالما اشتاق اليها فما بلغ هذه الامنية حتى هتف هاتف الفرح : «ها هنا راحتي لانني رضيتها . هنا اغتذي على التقوى وابن السماء الذي اغتذى به الاباء القديسون من قبلي (لهُ تتبع)

مطبوعات شرقية جديدة

A. Brassac : Manuel Biblique, T. III, « Les S^ts Evangiles.. 15^me *éd. du Manuel Vigouroux-Bacuez. pp. IX-733, Paris, Roger et Phernovitz*, 1920

الجزء الثالث من الدستور الكتابي : الاناجيل

بلغ هذا الدستور الكتابي من الرواج ما لم يكن في الحسبان . فهذه طبعتهُ الخامسة عشرة وهي الرابعة بعد الحرب . ولا عجب فان الدروس الكتابية لا يزال نطاقها في اتساع لاسيما الاناجيل المقدسة التي خُصَّ بها هذا الجزء الثالث وزادهُ حسناً ان صاحبهُ الكاهن براساك اخرج تأليفهُ على صورة مستجدة فضمّنهُ خلاصة الابحاث